هل من جديد فى الأزهر ؟

للأستاذ الأب قنـــوانى

إن المؤرخ الذى يحاول أن يتتبع مراحل التطور الفكرى فى مصر فى أيامنا هذه يضطر — بلا جدال — إلى الإقرار بأن حياتنا العقلية تتمخض تمخضاً عنيفاً ، وأن روح التقدم الحقيق الذى يأبى أن يضرب عرض الحائط بما فى تراثنا الثقافى من قيم خالدة — أخذ يتسرب رويداً رويداً إلى مختلف أوساطنا العلمية. ولطالما كانت تخامرنى هـذه الفكرة أثناء إقامتى فى الخارج ، ولطالما تحدثت عنها — فى باريس ، وفى فاس ، وفى تونس — مع الذين يهتمون بمستقبل الثقافة العليا فى البلاد العربية ؛ فكنا نتساءل — مع شىء من اللهف — عن مدى انتشار هذه الثقافة ، وقوة تغلغلها فى الأذهان : هل تظل شيئاً سطحياً شكلياً ، أم تخوض فى صميم التعليم فتكيف العقلية ؟ ولئن كان هذا التطور يبدو بكل وضوح فيما يخص الجامعة المصرية ، لما هى عليه — منذ نشأتها — من انسجام مع الروح الحديث ؛ فالأمر كان لا يخلو من الغموض فيما يتعلق بالأزهر ، وهو المعهد العتيق الذى تركزت فيه منذ قرون برامج كادت — بموجب موضوعها — تتنزه عما يتطور ويفنى . .

ولذا كنت مشغوفاً كل الشغف عند ما رجعت إلى الديار المصرية — وأنا منكب على دراسة فلسفة القرون الوسطى مسيحية كانت أو إسلامية — أن أتصل بمن يوقفنى على تطور التعليم فى المعاهد الدينية فى هـذه المادة ؛ وخصوصاً فى الأزهر الحالى وموقفه من الأبحاث المقارنة التى تسنى لى أن أتبين خطورتها أثناء دراستى فى المعاهد الدينية فى أوربا ، ولذا لبّيتُ — بكل ترحاب — دعوة أحد أصدقائى الأزهريين إلى حضور المناقشة العلمية لنيل شهادة العالمية من درجة أستاذ فى التوحيد والفلسفة التى كانت إقامتها مزمعة يوم الأحد ٢٦ مايو سنة ١٩٤٦ فى مدرج كلية أصول الدين فى القاهرة ، ولقد شكرت صديقى أيما شكر لهذه الفرصة التى هيأها لى ، فسمح لى أن أجد بطريقة عملية إجابة جواباً لما كنت أوجهه لنفسى من سؤال ، وهذا ليس فقط من جهة الموضوع الذى نوقش فيه « تخريج كتاب الملل والنحل للشهرستانى » ؛ بل أيضاً من جهة الجو الروحى الذى ساد هذه المناقشة ، ومن جهة انسجام العناصر المختلفة التى توفرت فيه : فهناك سعادة الدكتور منصور فهمى باشا — مدير جامعة فاروق الأول سابقاً ، وكاتم سر مجمع فؤاد الأول للغة العربية — برأس اللجنة ، وهو ممن طالما ناشدوا روح التعاون الثقافى والتآزر العلمى ، وهناك الدكتور محمود الخضيرى أستاذ الفلسفة الإسلامية بجامعة فؤاد الأول سابقاً ، ووكيل البحوث والثقافة الإسلامية للأستاذ الأكبر شيخ الأزهر ، وهو من أبناء الجامعة المصرية الذين تخصصوا فى فرنسا وطافوا فى ألمانيا وأسبانيا ، وهناك الدكتور محمد غلاب خريج الأزهر وفرنسا ، وهناك الدكتور محمود حسب الله خريج الأزهر وانجلترا ، وهناك الدكتور محمد البهى خريج الأزهر وألمانيا — وثلاثتهم من أساتذة الفلسفة بالجامعة الأزهرية — أليس تكوين هذه اللجنة هو وحده رمزاً لما ينشده الأزهر ، ورمزاً لرغبته الأكيدة فى الأخذ من المناهج الحديثة بما يلائم رسالته العلمية ؟ .. ومما زاد هذا الرمز بلاغة تنوع النظارة الذين تسارعوا إلى حضور المناقشة

نعم ، إنه كان من الطبيعى أن نرى هناك أساتذة من الأزهر وطلبة أزهريين ، فالبيت بيتهم ، والمناقش من إخوانهم ، ولكن أليس من الغريب السار أن نجد بينهم أربعة قساوسة رهبان من يسوعيين ودومينكيين ، أحدهم مستشرق أمريكى والآخرون شرقيون ، بل مصريون ممن يعرفون الأستاذ المناقش جد المعرفة ؟ وأليس أعجب من هذا أن نشاهد بين الحاضرين آنسات فى المكان الخاص الذى خصص لهن فى أعلى المدرج ؟

وما وافت الساعة الخامسة حتى افتتح سعادة الرئيس الجلسة بكلمة استغرقت نصف ساعة ، وهو يتكلم بحماسة رزينة هادئة واعتقاد عميق يعطى أحيانا لعباراته نبرة قوية تجعلها تنفذ نفوذا إلى الأذهان والقلوب : بدأ بالثناء على فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق ، الذى عاقه عن الحضور انعقاد المجلس الأعلى للأزهر ، وعلى فضيلة الأستاذ الكبير وكيل الأزهر ، وعلى فضيلة شيخ الكلية ، وكرر الشكر لكل من ساهم فى العمل على اتساع دائرة الاتصال العلمى بين الأزهر والعلماء المدنيين والجامعيين ، خصوصا فضيلة الأستاذ الأكبر الذى تخصص فى الفلسفة بجانب تعمقه فى النواحى الدينية المختلفة ، والذى أفادت منه الجامعة المصرية حينا من الدهر ، ثم أبدى سعادة الرئيس أمله فى أن الأزهر سينال اهتمام فضيلة الأستاذ الأكبر من الناحية الفلسفية ، وأن نوابغ الأزهريين سيكونون — مع أستاذهم الأكبر — جوا سانحا للدراسات

الفلسفية بحيث يستطيع الأزهر أن يؤثر — حتى من الجهة الفلسفية نفسها — على الجامعات الأخرى، مادام الأزهر يطبق الأنماط العلمية فى المناقشة والمثابرة فى طلب الحق الذى هو ضالة المؤمنين ...

ثم وجه سعادة الرئيس كلمة لطلاب البحث العلمى والحقيقة العلمية، ناصحا إليهم بالجد والاجتهاد واتساع الآفاق والصبر والأمانة العلمية، حتى يصلوا إلى ذلك الموقف الذى وقف فيه زميلهم — صاحب الرسالة — ذلك الموقف الذى يدل على حب البحث العلمى والتفانى فيه، والذى يفتح الأبواب أمام منهوى العلم الذين لا يشبعون. وتمنى سعادته للأزهريين مستقبلا باهرا ما داموا يوسعون ميادين بحوثهم وآفاق ثقافتهم، بحيث يلتقى بهم ويتبادل الفائدة معهم من لم يسعدهم الحظ، ومن لم تتح لهم الظروف أن يتثقفوا بثقافة الأزهر.

ثم قرر سعادته: «أننا فى عصر تعاون وتفاهم وتقارب بين الفلسفات، بل وبين الأديان نفسها، وأن هذا التواصل والتعاون هما اللذان يسيران بالإنسانية إلى وحدتها المنشودة وغايتها المرجوة، وآية ذلك ما نشاهد الليلة من جو مشبع بروح التسامح والنهوض الفكرى». وأشار سعادة الرئيس إلى أن هذه أول مرة يرى أو يسمع فيها أن فى الأزهر غربيين وقساوسة ورهبانا: «وهذا يذكرنا بروح التسامح الذى كان الأزهر متسما به، والذى كان صدر الأزهر دائما منشرحا له». وأن هذه أول مرة أيضا سمع فيها سعادته أو رأى آنسات يحضرن مجالس العلم فى الأزهر ويخصص لهن أماكن فيه.» وهذا يدل على درجة عالية فى النضوج الفكرى والمستوى العلمى المفروض طلبه على كل مسلم ومسلمة، ويبين فى وضوح أن الأزهر أخذ يقدر ماهو مطلوب منه بإزاء المسلمات بجانب ماهو مطلوب منه بإزاء المسلمين، وأن هذا كله جو مبشر يدعو إلى التفاؤل بمستقبل الأزهر، الذى كان قد انعزل مدة طويلة حتى عن العلماء المدنيين».

ثم قال سعادته: «أما وقد لبى الأزهر حاجة العصر، وساير روح الزمن، فساهم فى الوحدة العالمية، واتصل بالعلوم التى تكونت فى ميادين أخرى بروح التسامح الدينى، والتآزر الفلسفى، والتآخى العلمى، فإنه سيصل — قريبا — قديمه بحديثه، ويصبح منبع ثروة كبيرة فى التوجيهات الفكرية والعلمية والدينية للعالم كله، وهذا مأمول، وهو فى رعاية شيخ درس الفلسفة الإسلامية والفلسفة الغربية وأفاد مما فيهما من خير مذكور. وتصيحتى العامة لكل شخص: أن يعمل للخير الذى وضعه الله فى فطرة الإنسان السامية، تلك الفطرة التى تتمثل فى الأديان جميعا: خيرا، ومحبة، وإخاء، وعدلا ... حتى يكون هناك التفاهم الفكرى والتفاهم الروحى، وحتى تسير الإنسانية إلى خير ما خلقت له.»[1]

ولعمرى! لم أكن لأنتظر فى هذه القاعة هذا الوضوح فى رسم الهدف، وهذه العزيمة فى السعى وراء تحقيقها، فهاهى الروح الجديدة التى كنت أتساءل عما إذا كانت وصلت إلى الأزهر، وهاهو الزرع المبارك الذى بدأ ينبت بإذن ربه، فالمناقشة التى تلت هذه الكلمة جاءت بمثابة تطبيق للمبادئ التى وضحها سعادة الرئيس، فالأستاذ صاحب الرسالة — وهو واقف رابط الجأش أمام المجلدات الأربعة لرسالته — أخذ يشرح موضوع رسالته، ثم يجيب بهدوء عن الأسئلة التى وجهها إليه بالتوالى أعضاء اللجنة؛ وهى أسئلة دقيقة تنفذ إلى لب الموضوع وتحاول تارة نقد منهج البحث، وتستفسر طورا بعض نتائج الرسالة؛ حوار بديع علمى وزين، أعاد إلى ذاكرتى تلك الرسالات التى تناقش فى أوربا؛ ولكن هنا مع شىء من «الظرف» المصرى الذى لم يقلل شيئا من جد المناقشة؛ بل يكسبها روحا شرقية خاصة لم أجدها فى الخارج.

وفى تمام الساعة الثامنة والنصف — أعنى بعد مناقشة استغرقت ساعتين — رفعت الجلسة، وخرجت اللجنة للمداولة، ولما رجعت إلى قاعة المناقشة نطق سعادة الرئيس بالحكم قائلا: «بعد أن تناقش أعضاء اللجنة فيما استبانوه من حسن الاستعداد الفلسفى، واتساع الآفاق، والمجهود القيم فى التأليف، والمثابرة على العلم، ومراعاة الخلق العلمى، وتلقى النقد بصدر رحيب يدل على محبة الحق... قررت اللجنة فوز فضيلة الأستاذ الشيخ محمد بن فتح الله بدران بشهادة العالمية مع لقب أستاذ من درجة ممتاز فى التوحيد والفلسفة». فدوت القاعة بالتصفيق والهتاف ...

ورجعت إلى «الدير» والذهن مملوء بتفاصيل هذه الحفلة الثقافية العليا؛ فحدثتنى نفسى أن أسطر هذه الأسطر؛ لعلها تساهم — لا من جهة الرأى الشخصى؛ بل من جهة الواقع المحسوس — أقول: لعلها تساهم فى إيضاح مشكلة الأزهر التى عولجت مرارا على صفحات مجلة الرسالة الغراء.

الأب فنواتى

(١) مرجنا هذه الأقوال على سعادته فأقرها.